

النورسي متكلم العصر الحديث

أ. د. محسن عبدالحميد *

في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، تجمعت قوى الظلام والتدمير في العالم، على اطفاء نور الاسلام واستعباد ابناءه، والتخطيط لاسقاط دولته التي حافظت على كرامة ابناءها حوالي خمسة قرون. ومن هنا ظهرت الاعماق الخفية للمرتدين، وتوضحت صورتهم الحقيقية، فبثوا الدعاية وضخموا الاخطاء، واطلعوا الاعداء علي العورات ومكنوهم من احتلال البلاد. تقودهم قيادة اليهودية العالمية وبؤرها الماسونية، وتتصرهم الصليبية ودولها بقواها الغاشمة، ليسقطوا الدولة، وينتهكوا الكرامة، ويسفكوا الدماء، ويغيروا القيم والموازين والقوانين، ويظهروا في الأرض الفساد، باظهار الخلاعة واقامة المنكر ونشر الاحاد، واخراج المسلمين من حضارة العلم والايمان الى حضارة الكفر والطغيان.

هذه التحديات الهائلة، حركت الاجساد الهامدة، والافكار الراقدة، والجموع الحائرة، والجحافل المنهزمة. ظهرت في استجابات دعوات المصلحين، وصيحات الغيورين، وافكار العلماء، ودماء الشهداء. في كل صقع ترتفع فيه شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله. وكان نصيب المسلمين في تركيا المسلمة من ذلك الكفاح والجهاد نصيباً يتسامق مع فخار تلك الأمة المؤمنة التي قادت بدماء شهدائها الابرار، عبر قرون من الزمان، معارك الاسلام الكبرى، التي صدّت قوى الصليبية الزاحفة، عن الأمة الاسلامية وعن ديارها المقدسة في أرض الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى المبارك. فحال بينها وبين حدوث كارثة اندلسية أخرى، في الشرق العربي المسلم، عندما سدّت النوافذ المفتوحة، وسيطرت على البحار المشرفة، وحطمت الجيوش المتقدمة، وملأت الفراغ الرهيب.

لقد شاعت ارادة رب العالمين ألا نموت هذه الأمة الاسلامية الشاهدة، الحاملة لآخر رسالة سماوية الى الكون كله، فبعثت الربانيين الصادقين، والعلماء العاملين، والمجاهدين المتورين، والمجددين المخلصين، الذين كانوا شهوداً ظاهرين على معجزة الاسلام في الحياة، لانقاذ الأمة من السقوط الحضاري الذي وقعت فيه، واعادتها الى صدر الاسلام الحنون وحضارتها الربانية السمحة، بعقيدتها الفطرية، وشريعتهما الحكيمة واخلاقها الرفيعة. وفق الله تعالى الاستاذ الكبير والامام الجليل والداعية المثبت الى انجاز خير كثير في هذا الوطن الاسلامي العريق.

ففي ميدان السياسة الاسلامية اعتمد على التوثب الحذر، والمواجهة الذكية والتخطيط الهادئ ومراعاة ظروف الأمة ومعالجة ادوائها في جذورها البعيدة، ومظاهر الحياة الاجتماعية في قواعدها التحتية وتحويل المعركة من اسلوب اعلامي فاضح الى مخطط فكري عميق ينظف الاذهان ويعالج الادران ويشخص الاعداء ويهيئ لصياغة الأمة المنكوبة من جديد. وكان النورسي من قوة الايمان، واطمئنان اليقين وعزة النفس وصلابة الشخصية وعظم الشجاعة، بحيث كان يستطيع ادارة المعركة الدموية ومواجهة الحكام في زمانه مواجهة صريحة هادئة، ولكنه كان موقناً بان ذلك الاسلوب لم يكن في مصلحة الأمة، وكان يدرك تماماً أن الأمة في صراعها الداخلي يومئذ لم تكن بحاجة الى الشهداء، وانما كان بامس الحاجة الى العلماء الصادقين - والدعاة العاملين والحكماء المفكرين، من أجل انقاذ الايمان والوقوف امام الردة الحضارية والزحف الجاهلي، متمثلاً بالحق الصليبي والتأمر اليهودي، وخيانة المنافقين.

وأما في مجال العقيدة الإسلامية، فقد اقتنع النورسي أنه لم يعد يكفي في إدارة صراع الزمن الجديد، علم الكلام المصطلحي الذي كان يتعامل مع مادة معرفية عتيقة انتهى عهده، وولت صراعاته اللاهوتية النظرية.

نعم، لم يعد يكفي منهج المتكلم المعتزلي الذي دخل في جدال تجريدي من أجل ابعاد مفهوم الصفات الالهية عن الاقانيم النصرانية، محاولة لمنع المسلمين من الوقوع في شرك موهوم وتجسيد رواقى مستورد.

ولم يعد يفيد الامة منهج حفظة النصوص في مواجهة المعتزلة، في الدعوة الى عدم الخلط بين اوراق الاسلام واوراق الصراعات اللاهوتية ومصطلحاتها.

وكذلك لم يكن يسعف في المعركة الجديدة، منهج الاشاعرة في نفي التطرف من التجسيم الحشوي والعقلاني المعتزلي، ومحاولة التقريب بينهما ليقدّم حلاً وسطاً في المسائل المتعلقة بالتوفيق بين النقل والعقل في علم الكلام القديم الذي كان يشكل ايدولوجية مرحلية مقبولة يومئذ بين المسلمين أو جمهورهم.

واخيراً هل كان ينهى مواجهتنا مع اخلاقيات الحضارة المادية في اطار جاهلية شاملة، منهج المتصوفة الرهاد الذين يظلون يسيرون في مدارج السالكين دون التفكير بالعودة الى الأرض ليقودوا حركة مواجهة طغيان هذه الجاهلية العالمية، وادواتها السلوكية المدمرة. لقد كان الزمن الاسلامي الجديد ينتظر بفارغ الصبر عقلية متحضرة واعية، ومتكلماً منظراً، يمتلك علماً اسلامياً غزيراً، وادراكاً ايمانياً عميقاً لطبيعة الصراع بين منظومة الحضارة الاسلامية ومنظومة الحضارة الغربية في ظل مرحلة التأخر والسقوط الحضاري، والخواء الايماني الذي كان يعيش فيه المسلمون يومئذ.

لقد شاءت ارادة الله ان يكون ذلك المتكلم المعبر عن زمانه هو الاستاذ بديع الزمان الذي: اولاً: اكتشف تماماً أن غزواً فكرياً مركزاً يشن على العقيدة الاسلامية، واسقاط هويتها وهيبته شريعته ونظامها الاخلاقي في نفوس المسلمين، ابتداءً من الدوائر الاجنبية وانتهاءً باجهزة الاعلام والثقافة والتربية التي كان يقودها الملاحدة والمنافقون والماسونيون وتلامذتهم وعملاؤهم ممن تشبعوا بالافكار المادية الحديثة.

ثانياً: حاول ايجاد علم كلام قرآني يعتمد على الأدلة المتدرجة من المحسوس الى المجرد، محققاً بتجربة واعية المطابقة الكاملة بين القرآن المقروء والقرآن المنظور والقرآن الثالث، النموذج المطبق الذي هو رسول الله #، الذي يعدّه ثمرة الكائنات التي لم تكن لتكتمل إلا بمجيئه المبارك. ومن هنا فانه لم يقتصر على موضوعات علم الكلام القديم وانما تجاوز ذلك الى بيان المذهبية الشاملة في الوجود، بما فيها الانسان والطبيعة، فغداً مخططه الكلامي الحديث مواجهها تماماً لمخطط الغربي الأيديولوجي في اقتحام الموضوعات المذكورة من وجهة نظر الفلسفات المادية. ثالثاً: ظهر له ان المواجهة غير متكافئة بين أمة هزيلة مغلوب على امرها وبين القوى الطاغوتية العاشمة التي كانت لا ترحم في فرض الكفر عن طريق التصفيات الجسدية الرهيبة للذين يقفون في طريقها في تغيير هوية الأمة وسلخ جلدتها وادخالها في ثقافات منحرفة وانظمة اجتماعية كافرة لاصلة لها بها ديناً وتاريخاً وحضارة ولغة.

رابعاً: قرر المواجهة لمنهج اصولي شامل جامع يوقف المسلمين امام تلك الكوارث الكبرى في خندق واحد، لانه لم يكن يؤمن في هذا الكون إلا بخندقين متقابلين؛ خندق الايمان والرحمن، وخندق الكفر والشيطان.

خامساً: لا يؤمن الاستاذ النورسي بالمعرفة الجزئية ويعدها ناتجة عن نواقص العقل البشري. فمهما اوتى العالم المسلم علماً من العلوم أو معرفة محدودة من المعارف أو غاص في سر من

اسرار الوجود، فإنه لن يستطيع الوصول الى المعرفة الشمولية والقانون الرابط للكون، وحينئذ يفقد الموازنة والاتساق.

ولذلك فإنه يبين أن فهم القرآن الكريم والاطلاق على حقائقه بمقدماته ونتائجه في عالم الانفس والافاق هو الذي يرسم الموازنة الكاملة في فكر العالم المسلم والعارف المسلم، لأن طريقة القرآن الكريم هي اقرب الطرق الى اثاره الفطرة الانسانية وتحريك العقول الباحثة عن الحق والقلوب العامرة بالتوثب الدائم نحو الكمال.

ومن هنا فإن منهج النورسي في رسائل النور الخالدة، قد عصمه الى حد كبير من الانزلاق الفكري في اخضاع النصوص الى متطلبات الحياة المتغيرة، وعوارض قصور القهم البشري، البعيد عن هداية الكتاب العزيز والسنة المطهرة، على الرغم من قدرته الفائقة في السريان الى ابعاد معنى في تتبع خلايا الوجود في اطار اوسع دائرة ممكنة في الطوق البشري. سادساً: النورسي يفصل بحسم بين الوحي الالهي وحركة التاريخ الاسلامي، ولذلك فإنه مجدد حقاً، يحاول ان يجدد حياة امته في الزمن الحاضر والمكارن الحاضر والصراع الحضاري الحاضر، ولكن بقيادة القرآن الكريم واستاذيته الربانية، ورياده الرسول الاعظم # والقيم الرفيعة النبيلة التي صاغت كتائب المجاهدين.

وهو لا يدعو الى النكوص الى الورا ولا الوقوف عند الزمن الحاضر، وانما يؤمن بحركة الأمة الاسلامية، وتجديد الفكر الاسلامي في كل عصر، موازياً للمستوى الحضاري الذي وصل اليه الانسان، بعيداً عن المادية الاسنة، المشدودة خيوطها بمراكز القوى اليهودية والنصرانية والزندقة الحديثة.

سابعاً: النورسي لا ترفض الفلسفة الحقبة أو الفلسفة المؤمنة، وانما يرفض العبثية التي تتكرر اله الكون ونظام الكون، وترفض مبادئ الدين الحق، ولقد غدت تلك الفلسفة وسيلة للتردى في الضلالة والاحاد والسقوط في هاوية المستنقع العفن للطبيعة الجامدة، والتي ترى القوة نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف الى المنفعة في كل شيء، وتتخذ الفراغ دستور للحياة وتلتزم بالعنصرية رابطة للجماعات.

ومن المعلوم كما يقول استاذنا الجليل، أن شأن القوة هو الاعتداء وشأن المنفعة هو التزام وشأن الصراع هو النزال والجدال وشأن العنصرية هو الاعتداء.

أما الفلسفة القرآنية - إن صح التعبير - فهي تقبل الحق بدلاً من القوة، ورضى الله بدلاً من المنفعة، والتعاون اساساً في الحياة بدلاً الصراع وتلتزم برابطة الدين والانسانية بدلاً من الرابطة العنصرية.

على ان بديع الزمان لا يرفض الفلسفة المادية فحسب وانما يرفض ايضاً ما يسمى بالفلسفة الالهية القديمة التي تحولت الى ابواب من الشرك، ممثلة بروادها اليونانيين من امثال افلاطون وارسطوا وتلامذتهم من المسلمين كالفارابي وابن سينا الذين لتأثرهم بالفلسفة اليونانية، لم ينالوا إلا ادنى درجات الايمان، لأنهم لم يتخذوا القرآن الكريم استاذاً لهم في الحياة.

ثامناً: يرفض الاستاذ المنطلقات الثقافية في الحضارة الغربية، لأن المادية البحتة هي التي توجهها، ولا يرفض الجوانب العلمية فيها، من منطلق ان الاسلام دعا المسلم أن يتحرك في اطار اكتشاف قوانين الحياة والاستفادة منها لاقامة الحضارة وبناء التقدم، ولذلك فإنه من ضرورات اقامة المجتمعات القوية، أي إنه يؤمن ان المجتمعات الاسلامية تحتاج الى تبني التقنية الحديثة، مع المحافظة على الايمان والاصالة والقيم الذاتية للأمة الاسلامية.

تاسعاً: واخيراً وليس اخراً، يؤمن الاستاذ النورسي، في حركة التغيير الاجتماعي الى النظام ويرفض الفوضى، ويعتقد بالتدرج وينكر الطغرة لأنها تتناقض مع نظام الكون القائم على شبكة

من القوانين التي تعتمد التدرج.

وفي ضوء ذلك يدعو الانسان الى تغيير اجتماعي منظم يتمسك يقانون التطور الفطري الذي يبدأ من القاعدة الى القيمة، لا العكس، ويؤدي الى زعزعة الحياة الاجتماعية، وينتج منه شر مستطير، وتخريب كبير.

ولايمان الاستاذ بالتغير في اطار الوعي الاجتماعي والدعوة السليمة والتخطيط الهادئ، فانه لا يبيح الجهاد المسلح في داخل المجتمع الاسلامي الموجه الى الدولة ومؤسساتها، لان ذلك لا يخدم من وجهة نظره إلا العدو الخارجي المتربص بالمجتمع الاسلامي من حيث هو كل واحد. على انه لا ينكر ان استعمال الهرواة قد تحتاج اليه العصابة المؤمنة القوية في المراحل الاخيرة من بناء المجتمع الاسلامي الجديد، لأن من لا يفيد النصح والارشاد حينئذ، يفيد القلع والابعاد، حسب تعبير الامام الشهيد رضي الله عنه وعن شيخنا بديع الزمان.

هذا هو الاستاذ النورسي، العلامة، المتكلم المجدد المربي، الحركي العظيم، الذي نكتشف الكون الاسلامي والانساني كله من خلال كلماته المتأججة الخالدة المتطورة الى الامام دائماً، في نماء خصيب كخصوبة مهرجان الربيع الذي كان يعشقه ويحتضنه كل عام بروحه وكيانه، فيقود موازياً له مواكب كلماته الخالدة في رسائله النورانية القرآنية الباهرة، في مهرجان آخر الى الله تعالى، لينفذ ايمان امة غافلة منكوبة، خطط الاعداء لسرقة ايمانها وتخريب ثقافتها وتغيير دستور حياتها، والحيلولة دون انفجار صوتها من جديد.

إذن فمنهج النورسي التجديدي الكلامي التعبيري ليس منهاجاً مرحلياً مرتبطاً بزمن معين، ولم يكن علاجاً لمشكلات معينة، وانما هو المنهج الشمولي الذي يشكل السقف الراسخ فوق حركة الأمة الاسلامية، لكن بلغة العصر، وحياة العصر، وصراع العصر في مواجهة جاهلية العصر. لقد كان علم المتكلمين السابقين من الكتب - اما علم النورسي فبدأ من الكتب ثم تجاوزها الى الكون فالقرآن الكريم، فرسول الله #، ثم الى حركة ايمانية اجتماعية، اجتهدت في اصلاح ما أفسد الناس.

فشتان بين علم مجرد وعلم مطبق، وبين علم مقيد وعلم مطلق.

رحم الله تعالى شيخنا النورسي رحمة واسعة - واجزل مثوبته، وجزاه عن امته خير الجزاء، وحشره مع الانبياء والمرسلين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *